ونلحظ في شعر العباس أثرا بيّنا للعذريّين كجميل بن معمر وعروة بن حزام وكثيّر عزّة وغيرهم.

والملاحظ في شعره أنّه أوّل من عني بالرسائل الشعريّة الغراميّة ، فله ستّ وسبعون مقطوعة هي رسائل شعريّة أو حديث عن رسائل ، ولانعرف بعض هذا لشاعر عربي قبله .

وأكثر الشاعر من ذكر العتاب في الحبّ أو قد حلّل لنا العتاب وذكر أسبابه ونتائجه ،وربّما هو خير من كتب في أدب العتب بين العاشقين .

وشكوى العباس ميزة بارزة في شعره من جهة ومميّزة إيّاه بين أنداده من العشّاق ، هذه الشكوى التي تجعل الشاعر يصرخ بها لا الى من حوله من الناس حسب ،بل الى ما حوله من البهائم والطيور ، ومناجاة العباس للقطا مشهورة وجدت صداها في كلّ أذن ووقعها في كل قلب :

بكيتُ الى سربِ القَطاحين مَرّ بي فقلتُ ومثلي بالبكاءِ جَديرُ

أسِرْبَ القطا هل من مُعيرٍ جناحَهُ لعلّي الى مَن قد هويتُ أطيرُ ؟

والخضوع البالغ سمة بارزة من سمات العباس العاشق ،وهي وإن كانت سمة العشّاق كلهم ، إلاّ أنّها لدى العباس أعنف وأقوى.

المحاضرة الخامسة

أبو نواس

هو الحسن بن هانئ ، فارسي الأم والأب ، وقد كان أمر أبيه وجنسه غامضا على بعض الرواة حين رأوه ينتسب لآل الحكم بن الجراح من بني سعد العشيرة اليمنيين ويتكنى بكنية يمنية هي أبو نواس ، وكذلك حين رأوا في أخبار هذا الأب أنّه كان من جند مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين ، مما جعل بعض المعاصرين يظن أن أباه من أهل الشام ، بينما ذهب بعض الأقدمين الى أنه عربي وتمادوا فصنعوا له نسباً في بني سعد العشيرة ، والصحيح أنه كان مولىً فارسيا من موالي الجراح بن عبد الله الحكمي والي خراسان لعهد عمر بن عبد العزيز ، ويظهر أنّه انتظم في جند الخلافة ، وقد نزل مع فريق منهم بالأهواز لعهد مروان بن محمد (127-131هـ) وهناك تعرّف على جارية فارسية تسمى (جلّبان) كانت تغزل الصوف وتنسجه ، فاقترن بها وارزق منها عدة أولاد ، منهم أبو نواس ، والمرجّح أن ولادته كانت سنة (139هـ) ، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفّي أبوه ، فنقلته أمّه الى البصرة ، وقامت على تربيته ، وسرعان مادفعته الى الكتّاب ، فحفظ القرآن وأطرافاً من الشعر، وتفتّحت موهبته ، فأخذ يلهج ببعض الأشعار ، وكان مليحاً صبيحاً، ويقال إنّ صبية جميلة مرّت به فمازحته ، ثم رمت اليه بتفاحة معضّضة ، فقال على البديهة :

ليس ذاك العَضَّ من عيبٍ لها إنَما ذاكَ سؤالٌ لِلقَبَلْ

وشبَّ الغلام فأخذ يختلف الى حلقات المسجد الجامع يتزوّد من الدراسات اللغويّة والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه غير أنّ أمّه رأت أن تلحقه بأحد العطّارين ، فكان يذهب الى المسجد يستمع من أبي عبيدة أخبار العرب وأيّامهم ، ويلتقط من أبي زيد غرائب اللغة ومن خلف الأحمر نوادر الشعر ، وساقه القدر ليتعرّف على (والبة بن الحباب) أحد مجّان الكوفة المشهورين ، ويقال إنّ هذه المعرفة نشأت في البصرة ، وأخذه معه الى الكوفة ، ولم يكتف بالشعر واللغة فقد طلب الفقه والتفسير والحديث ، وطلب أيضاً علم الكلام عند النظّام وغيره من المتكلمين ، وكان يستظهر مصطلحاتهم في أشعاره ، وأخذ من الثقافات الهندية والفارسية واليونانية، وكان يحسن الفارسية إحساناً بعيداً جعله يلوك كثيراً من كلماتها في أشعاره ، وكذلك نظر الى الفلسفة اليونانية وما اتّصل بها من منطق ، وفي خمرياته ما يدلّ على أنّه وقف على طقوس المجوس واليهود والنصارى وعقائدهم .

وعلى الرغم من ظرفه لم يكن قريباً من نفس المرأة التي عاصرته ، فقد كانت تزدري فيه غلاميّاته وسيرته الشاذّة ، وكانت أوّل امرأة شغفته حبّاً عندما كان في البصرة (جنان) جارية الثقفيين ، وعقد أبو الفرج فصلاً في أغانيه لأشعاره فيها وأخباره معها ، ونراه يرسل لها بغزليّاته ، وترسل له بسبِّها وشتمها ، وهو يزداد بها شغفا ، حتّى يقول :

أتاني عنك سَبَّكِ لي فسُبِّي أليس حرى بفيكِ اسمي فحَسْبِي

وقولي ما بَدَا لكِ أن تقولي فمـــا ذا كُلـــهُ إلّا لِحُبّـــي

وغزله فيها غزل عفيف لا فحش فيه .

وجذبته بغداد وقدّمه (هرثمة بن أعين) الى الرشيد فمدحه ونال جوائزه ، وأخذ ينفقها في مباذله ، غير تارك حانة بالكرخ إلا ارتادها ، وكأنما تحوّلت حياته الى حانة كبيرة يقترف كلّ ما لذّ له من إثم وفجور، وارتقى ذلك الى الرشيد فحبسه مرارا لعلّه يزدجر ، ولكنه كان سرعان ما يعود الى سيرته السيئة حين تردّ له حريته . وقد غضب عليه غضبا شديدا حين رآه يهجو عدنان ويفتخر بقحطان ومواليه اليمنيين فأطال حبسه ، ثم عاد فعفا عنه ، وربّما كان للبرامكة أثر في هذا العفو المتكرّر ، فقد كانوا يقرّبونه منهم ويغدقون عليه من برّهم ونوالهم ، وعندما نكبهم الرشيد سنة (187هـ) حزن عليهم حزنا عميقا وراح يرثيهم .

ويولي وجهه نحو الفسطاط بمصر ليمدح والي الخراج بها (الخصيب بن عبد الحميد) ، وكان فارسيا مثله . وسرعان ما أخذ يحنّ حنينا شديدا الى بغداد حيث المجون قائم على قدم وساق ، وصوّر هذا الحنين بمثل قوله :

كفى حَزَناً أنيّ بفسطاط نازحٌ ولي نحو أكنافِ العراقِ حنينَ

وعاد الى بغداد ، ولم يلبث الرشيد أن توفّي ، وخلفه الأمين (193 – 198هـ) ، وكان فيه ميل شديد الى اللّهو فحوّل قصر الخلافة الى مقصف كبير للغناء والرقص ، واتّخذ أبا نواس نديما له يمدحه وينظم له ما شاء من غزل وخمر ، واستغلّ ذلك المأمون حين عزم على حرب الأمين ، فوصل ذلك الى الأمين فنهى أبا نواس عن الخمر فلم ينته ، حينئذ أغراه (الفضل بن الربيع) وزيره بحبسه ، فحبسه ، وقد مضى في حبسه يستعطف الفضل بأشعار مشيعا فيها روحه الفكهة بما يصوّر من نسكه وعلامات السجود في جبهته وحمله للمسابيح والمصحف في ذراعه ، وعطف عليه الفضل فتلطّف له عند الأمين وردَّ إليه حريته .

وكانت قد تقدّمت به السنّ وعلته كبرة وشيخوخة ، فأخذ ينيب الى ربّه ، وينظم أبياتا مختلفة في الزهد ، وفي أخباره مايدلّ على أنّه تنسَّك مرارا، ثم عاد الى غيّه، ويقال إنّه حجّ سنة (190 هـ) . وتوفّي الأمين ، ولم يلبث أن توفي من بعده ، واختلف الرواة في سنة وفاته ، ولكن على الارجح أنّه توفي سنة (198 أو 199 هـ) ، قال ينتقد الشعراء الذين يقفون على الطلل في مقدمات قصائدهم:

عاج الشقيُّ على رسمٍ يسائِلُهُ وعُجْتُ أسألُ عن خمّارةِ البلدِ

يبكي على طلل الماضين من أسَدٍ لا دَرَّ دَرُّكَ قلْ لي مَن بنو أسدِ؟

كم بين ناعتِ خمرٍ في دساكِرِها وبين باكٍ على نَوْيٍ ومُنتضَدِ

دَعْ ذا، عَدِمتَكَ ،واشربها مُعَتّقَة صفراءَ تفرقُ بين الرُّوحِ والجَسَدِ

وأبو نواس – على الرغم من مجونيّاته – يعدّ من أعاجيب عصره في الشعر ، إذ كان يحظى بملكات شعرية بديعة ،وهي ملكات صقلها بالدرس الطويل للشعر القديم واللغة العربية الأصيلة ، فقال الجاحظ عنه : ((ما رأيت أحدا أعلم باللغة من أبي نواس)) . وأضاف الى هذا العلم علماً دقيقا بقوالب الشعر الجاهلي والاسلامي ، ومن خلال هذه القوالب جميعها أخذت شخصيته تنمو في اتجاهين : اتجاه يحافظ فيه على التقاليد الموضوعة دون أن يشتطّ في التجديد ، وتدخل في هذا الاتجاه مدائحه وأراجيزه ومراثيه ،واتجاه يجدّد فيه تجديدا واسعا ، يجدّد في معانيه وألفاظه ، وتدخل فيه أهاجيه وغزليّاته وخمريّاته وكلّ ما يتّصل بعبثه ولهوه .

وأبو نواس أستاذ فن الخمريّة في الشعر العربي غير مدافع سواء من حيث الكمّية أومن حيث الكيفية، وأخذت صورتها تتكامل وتفرد لها القصائد والمقطوعات وتصبح فناً مستقلاً ، له وحدته الموضوعيّة، مستعينا في ذلك بملكاته العقليّة الخصبة التي أمَدّته بكثير من المعاني الدقيقة ومستعينا بملكاته الخيالية التصويرية البديعة التي رفدته بكثير من التشبيهات

والاستعارات البارعة ، مع حلاوة النغم ورشاقة اللفظ ، وكان كثيرا ما يدخل ألفاظا فارسيّة في خمريّاته بحكم شيوع الفارسية في الحياة اليومية .

وعني في بعض أشعاره بقالب الرباعيّات والمسمّطات غير أنّه لم يتّسع بذلك ، وكان أهم ما وفّر له عنايته صفاء النغم وعذوبته . ولعلّ ذلك هو الذي دفعه الى الإكثار من الأوزان القصيرة والمجزوءة .

البحتري

هو أبو عبادة الوليد بن عبيد ، طائيّ الأب شيباني الأم ، غلب عليه لقب البحتري نسبة الى عشيرته الطائية ، بحتر ، ولد سنة 204هـ بمنبج الى الشمال الشرقي من حلب على الطريق المؤدية الى الفرات ، توفي سنة 284هـ.

نشأ في أحضان عشيرته يتغذّى من فصاحتها ويبدو أنّه اختلف مبكرا الى الكتّاب ، فحفظ القرآن ، أو شطراً كبيراً منه، كما حفظ كثيراً من الأشعار والخطب ، واختلف حين شبّ الى حلقات العلماء في المساجد يأخذ عنهم اللغة وشيئاً من الفقه والتفسير والحديث وعلم الكلام ، واستيقظت فيه موهبة الشعر مبكرة .

وكان لا يبارى في ثقافته بالشعر ، ممّا جعله يضع فيه ديوان الحماسة مشابهة لاستاذه أبي تمّام في حماسته المشهورة ، ويقول ابن النديم إنّ له كتابا ثانيا في معاني الشعر ، غير أنّ هذا الكتاب سقط من يد الزمن ، والكتاب الأول كافٍ في تصوّر إكبابه على الشعر القديم إكباباً منقطع النظير ، وبالمثل كان يكبّ على دواوين الشعراء المحدثين ، ممّا أتاح له ثقافة شعرية واسعة ، إلّا أنّه لم يُخْضِعْ شعره للمنطق والفلسفة كأبي تمّام ، وكان هو بنفسه يصرّح بذلك .

وهناك ظاهرة مهمّة في شعره وهي أنّه جارى أستاذه أبا تمّام في الاحتفال بألوان البديع واستظهارها في أشعاره وللبحتري مقدمات شعرية وقصائد تضمنت شكواه وألمه وحزنه واشتياقه من ذلك قصيدته الدالية التي يقول فيها:

سَلامٌ عَلَيكُم لا وَفاءٌ وَلا عَهــدُ أَما لَكُـــمُ مِن هَجرِ أَحبابِكُم بُدُّ
أَأَحبابَنا قَد أَنجَزَ البَينُ وَعــدَهُ وَشيكـــاً وَلَم يُنجَز لَنا مِنكُمُ وَعدُ
أَأَطلالَ دارِ العامِرِيَّـــةِ بِاللِـــوى سَقَت رَبعَكِ الأَنـــواءُ ما فَعَلَت هِندُ
أَدارَ اللِوى بَينَ الصَريمَةِ وَالحِمى أَما لِلهَوى إِلّا رَسيسَ الجَوى قَصدُ
بِنَفسِيَ مَن عَذَّبتُ نَفسي بِحُبِّـــهِ وَإِن لَم يَكُـــن مِنـــهُ وِصالٌ وَلا وُدُّ
حَبيبٌ مِنَ الأَحبابِ شَطَّت بِهِ النَوى وَأَيُّ حَبيـــبٍ ما أَتـــى دونَهُ البُعدُ

وفي ديوانه أهاج مختلفة ترجع إمّا الى حرمانه من جائزة ، وإمّا الى كفران صنيعة عند بعض معاصريه ، وإمّا الى منافسة بينه وبين الشعراء ، ولا سيما من كان منهم يتعرّض لشعره بالذمّ والنقد اللاذع.

وكانت لدى البحتري قدرة بارعة في وصف مظاهر العمران ، بما أُتِيحَ له من دقّة في التصوير والتعبير ، ولم يكد يترك قصرا بناه المتوكل دون أن يصفه موجزا أو مسهبا، وبالمثل وصف ما بناه الخلفاء بعده من قصور ، ومرّ بنا وصفه لإيوان كسرى ، ومن القصور التي أجاد في وصفها قصر الكامل الذي بناه المعتز .

الشريف الرضي

هو أبو الحسن ، الشريف الأجل ، الملقّب بالرضيّ ، محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن ابراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي (عليهم السلام) وأمّه السيدة فاطمة بنت الحسن بن أحمد بن الحسن الناصر الذي يرجع نسبه الى الأمام علي (عليه السلام) ، لذا يلقب بـذي الحسبين .

ولد في بغداد بجانب الكرخ سنة (359هـ) ونشأ في بيت عزّ وشرف ، وفي بيئة علميّة وأدبيّة ، وكان الشريف الرضي دؤوبا في التأليف والتصنيف ، وقد ترك آثاراً جليلة وقيّمة ، من اهمها : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، وتلخيص البيان عن مجازات القرآن ، ومجازات الآثار النبويّة ، وخصائص الأئمة ، وديوان شعره ، فضلاً عن جمعه لرسائل الإمام علي (عليه السلام) وخطبه في كتاب سمّاه (نهج البلاغة).

توفي الشريف الرضي يوم الأحد السادس من شهر المحرم سنة (406هـ) ، ورثاه ثلاثة شعراء كبار : الشريف المرتضى ، والوزير أبو القاسم الحسين بن علي ، ومهيار الديلمي .

كان الشريف الرضي شاعراً فصيحاً ، كما كان كاتباً مترسّلاً ، وإماماً في النحو واللغة والتفسير ، قال الشعر حين بلغ العاشرة ، واستمّر في نظمه طوال حياته.

إنّ أكبر حادثة أثّرت في نفسه أبلغ الأثر هي سجن أبيه في بلاد فارس (369-375هـ) ومصادرة أملاكه ، فراح يمدح هذا الأب بقصائد كثيرة ، وحينما أطلق سراحه ، وبارح السجن ، ووصل الى بغداد ، رآه وخفق قلبه ، وانهلّت مدامعه فرحا ، وقابله بقصيدة تتشح بالسرور .

إنّ شخصية الرضي بارزة في مدائحه ، تظهر شامخة أبية ، تطلب العزّ والرفعة ، وفخره بنفسه ، وزهوه بمقامه وشعره وشجاعته وفروسيته ومضاء عزمه وقوّة إرادته ، كثير في شعره ، على نحو قوله في قصيدة حماسية مطلعها :

نبهتُهمْ مثلَ عوالي الرماحْ الى الوَغى قبلَ نمومِ الصباحْ

كان الشريف الرضي يعتزّ بقومه ويفخر بأرومتهم ، ويريد لهم السمو والمقام الرفيع ، ويسمّي نفسه (الفتى العربي) في بعض شعره ـ والشريف الرضي الذي كان نزّاعا الى المجد ، يصبو الى الجمال ، ويتغزّل بالمرأة الحسناء بقلب رقيق.

إنّ غزله الجميل المتمثل بقصائده المعروفة بـ(الحجازيات) في غاية الرقّة والعذوبة ، قالها في أماكن لا يحلّ فيها الرفث ولا الفسوق ، وقالها وهو نقيب الأشراف وامام الحجّ ،لكنه نفّس بها عن نفثات صدر اضطربت فيه العواطف ، وجاش بها وبفورانها فما استطاع لها كتمانا ، فأرسلها ترانيم تحلّت بصفاء الروح وسمو العاطفة ، فغفرله معاصروه هتافه للجمال واشادته بصبوات نفسه ولوعات هواه .

إنّ غزله يمتاز بسمو العاطفة ، والوقار والعفّة ، الى جانب جمال الانسياب ،وحلاوة الموسيقى ، وهو أقرب فنونه الى البساطة اليدويّة التي تتجلّى في شعر العذريين وعشاق الإعراب ، رجالا ونساء ،وفيه نفحة من نفحاتهم في الحنين الى المرابع ومعاهد الصبوات ،وقد سار غزله بين عشّاق الأدب وحفظوه وردّدوه في محافلهم ومنتدياتهم ، ومن بديع قصائده الكافيّة التي عارضها كثير من الشعراء ،وهي :

يا ظبيةَ البانِ تَرعى فـي خمائِلِهِ	ليَهْنَكِ اليومَ إنّ القلبَ مرعـاكِ
الماءُ عنـدَكِ مبـذولٌ لشـارِبِـهِ	وليس يَرويكِ إلاّ مدمعي الباكي
هَبَّتْ لنا من ريـاحِ الغورِ رائحـة	بعد الرُّقادِ عرفناها بِرَيّاكِ
ثمّ انثنينا ، اذا مـا هَزّنا طَرَبٌ	على الرّحالِ، تعللنا بـذكراكِ
سهمٌ أصاب وراميهِ بذي سلـمٍ	مَن بالعراقِ، لقد أبعدتِ مرماكِ
وَعْدٌ لعينكِ عندي ما وفيتِ بـه	يا قربَ ما كذبَتْ عيني عيناكِ
حَكَتْ لِحاظُكِ ما في الريمِ مِن مُلحٍ	يومَ اللقاءِ فكان الفضلُ للحاكي
كأنّ طرفكِ يومَ الجزعِ يخبرُنـا	بما طوَى عنكِ من أسماءِ قتّلاكِ
أنتِ النعيمُ لقلبي والعذابُ لـه	فما أمَرَّكِ في قلبي وأحـلاكِ

وكان الرضي من الشعراء المجيدين في فن الرثاء ، المحسنين في اظهار اللّوعة والأسى على الراحلين ،وكثر عنده رثاء أهل بيته،ورثاء الاصدقاء والرؤساء والملوك ، ومن أشهر مراثيه وأصدقها مرثيته لأمّه، وكان كثيراً ما يعبر في مراثيه عن آلامه وهمومه ، ويرسل في ثناياها حكما وأمثالا تدلّ على نظرات عميقة في الحياة.